المصدر: الوطن السعودى
التاريخ : ٨ ابريل ٢٠٠٣

أيام صدام الأخيرة

بغداد: روبرت فيسك

أيام بغداد الأخيرة... وأيام صدام الأخيرة... وتعود بي الذاكرة إلى الوراء هذه الأيام وأتذكر أن هوليود أنتجت أفلاماً تعتمد على سياسة اتباع كل مشهد تاريخي بظهور مفاجئ لصحيفة خيالية بعنوان مناسب، فصور مشاة البحرية المندفعين نحو شواطئ المحيط الباسيفيكي يعقبها عنوان يقول "العودة إلى الباتان" أو "عودة ماك آرثر" ومشاهدة جنود البحرية الأمريكية لأول مرة صباح "الاثنين" وهم يقفزون من عرباتهم ويلقون بأنفسهم في الغبار، ومشهد الجنود العراقيين وهم يحاولون النجاة بأنفسهم أثار عنواناً - ربما يكون مناسباً لصحيفة خيالية - جديداً في مخيلتي فلربما يصلح عنواناً مثل "على ضفاف بابل"، لكن الموقع الجغرافي يبعد 100 كيلو متر وهذا يعتبر سهلاً بالنظر إلى العراقيين الذين بدأوا يعتبرون هذه الأيام "الأيام الأخيرة" ليدركوا جمال الانهيار الوحشي، فهذا أحد المسؤولين العراقيين الذي عرفته منذ زمن والذي ساند بتفاؤل حزب البعث لكنه فجأة توقع بالأمس أن "أحداثاً مشؤومة" ربما تحصل في بغداد، ثم هناك شريط الفيديو غير العادي والذي ظهر فيه صدام يضم فيه أحد رجال مليشيا حزب البعث في شوارع بغداد يوم الجمعة الماضي. وليس شبيها بقائد أوروبي يلامس خد عضو فلوكسترم صغير في آخر صورة معروفة أخذت له. وغني عن القول إن الذين يقبعون وراء الدعاية الأمريكية في البنتاجون بدأوا في ترديد سمفونيتهم المعتادة عندما قالوا إنه "شبيه صدام" وإن الفيلم قد صور قبل أسبوع ولكن كل ذلك المشهد كان حقيقة، فقد قابلت اثنين من العراقيين الذين شاهدوا صدام يوم الجمعة بأم أعينهم، وشاهدوا الشامة على خده الأيسر وقد كان من السهل معرفة الأماكن التي زارها: وللقراء الذين يعرفون المدينة فإن صدام كان يستعرض في الكاظمية والصيرفية والمنصور وحيفا والإسكان. وقضى الطاغية الأوروبي الذي أشرت إليه قبل قليل ساعاته الأخيرة يسأل عن أخبار فرقة ونكس وبيرماشت الإنقاذية. أما صدام فكان أديباً وقد تعودنا على سماع كلمته اليومية

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

لشعبه، وفي أحدثها برر اختياره لبغداد لأن تكون الركن الدفاعي الرئيسي مشيراً إلى أنه فعل ذلك لأن بغداد هي "القلب المقدس" للعراق وليس - بالطبع - لأنه موجود فيها. واختار أن يكتب رسالة ختامية محيرة - يلاحظ فيها روح السخرية العميقة - إلى جلال طالباني القائد الكردستاني الذي يتعاون الآن مع الأمريكيين في الإعداد لسقوط النظام العراقي. وقد قال في مقطع رسالته منذ وقت طويل ونحن نراقب ما يدعى بالتقارب بينك وبين الولايات المتحدة والصهيونيين وغيرهم" وقد نشرت هذه الرسالة بعد أربعة أيام عندما أصبحت القوات الأمريكية على أبواب بغداد.

وقلت لنفسي قبل يومين إن جلال المشهور بتكتيكاته ومراوغاته السياسية يعتقد أن من صالحه أن يقوم بتلك الأشياء. ويعتبر ذلك شيئاً مألوفاً لدينار فنحن نعرف شخصية جلال تمام المعرفة، ولكن من مسؤوليتي أن أنبهك من الاستمرار في هذا المنهج أي في مساعدة القوات الأمريكية لفتح ثغرة في شمال العراق وقللت من الخسائر والإصابات الأمريكية فإن ذلك سيقود إلى كارثة.

ولكن يجب أن أقول - على أي حال - إن صدام لم يكن الوحيد الذي كشف عن هذا الجانب المظلم من الدعابة في هذه الساعات العصيبة، فصحيفة "القادسية" أيضاً في طبعتها التي قد تكون الأخيرة نشرت

قصة من النجف تتحدث عن امرأة عجوز تدعى أم علي والتي كانت في نعشها في الطريق إلى مقبرة المدينة عندما هاجمت طائرات أمريكية وأصابت السيارة التي تحمل نعش أم علي، ثم تتابع القصة وصف ما حدث وتقول: "إن السيارة التي قصفتها الطائرات الأمريكية حملت بقايا أم علي إلى المقبرة". وقد وضع محرر الصحيفة عنواناً كبيراً لتلك القصة يصلح لصحف التابلويد البريطانية حيث كتب بخط عريض "أم علي تنال الشهادة مرتين".

الأيام الأخيرة شهدت أيضا حرب علماء الدين حيث حاول البنتاجون والحكومة العراقية تفسير وإعادة تفسير أعظم علماء الدين في الأرض - أولئك الذين نجوا من القتل الغامض والشنق وحوادث السيارات في العقدين الماضيين. علي السيستاني، على سبيل المثال، ادعت الولايات المتحدة أنه دعا الشيعة "المرجع الشيعي الأعلى" لعدم مقاتلة جنود الاحتلال الأمريكي والآن يدعي السيستاني أن كلامه نقل خطأ. فهو لا يريد من جماعته أن يتعاونوا مع العدو، بل يريدهم أن يقاتلوا الغربيين. وهذا ما قالته الإصدارات الأخيرة من مطابع بغداد.

وأصدر الشيخ عبدالكريم محمد بيار المدرس "فتوى" تركز على أهمية الاستشهاد في المعركة ضد الأمريكيين. وبدلا من نشر تلك الفتوى في فقرتين في الصحف الحكومية، تم إصدارها في كتيب جميل الإخراج

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

وبنصها الكامل مقابل صورة الشيخ ذي اللحية البيضاء، وتحمل توقيعه الخطي. وهناك مرجع شيعي آخر هو سيد حسين سيد إسماعيل الصدر الذي طالب المؤمنين الحقيقيين بمقاتلة ''الطواغيت والمجرمين والصهاينة والصليبيين'' وحيث إن صدام قد تخلص من العلماء الذين يضايقونه، فإن الكتيبات تشير إلى أن المدرس والصدر لا يخشيان شيئا من القائد الأعلى طالما أنه على قيد الحياة.

في الوقت نفسه فإن الفلسطينيين الذين يركزون وبكل حق على العلاقة الحميمة بين مهاجمة أمريكا للعراق وتعامل أرييل شارون مع شعبهم في الضفة الغربية وغزة، تلقوا رابطا فيزيائيا (جسديا) بين الاثنين. حيث إنه قبل ثلاثة أيام فقط قامت طائرة أمريكية بإسقاط مجموعة من القنابل العنقودية على ضاحية صغيرة في بغداد هي ضاحية البلدية، حيث يعيش عشرة آلاف مدني فلسطيني معظمهم لاجئون أو أحفاد لاجئين من الذين خرجوا من فلسطين عام 1948م. وبالتأكيد إنني عندما وصلت إلى بيوتهم المهدمة كانت هناك القطع المعتادة من الأسلحة الأمريكية والكثير منها قطع من المعدن وهي قذائف حية لم تنفجر. على السطوح والأحواش. وكانت النساء الفلسطينيات يمنعن الأطفال من الاقتراب منها. بينما كان هناك رجل في منتصف العمر يحمل معطفا يقطر دما ويتحدث عن أطفاله عندما ألقت الطائرات الأمريكية في ضاحية البلدية بالقنابل. ولم يكن هناك هدف عسكري ولا شاحنات عسكرية في الشوارع الخلفية. ولكن كانت هناك شاحنات وقود عسكرية لم يصبها ضرر في ساحة على بعد نصف كيلومتر. وكانت قنبلة قد انفجرت على الطريق العام بين الشاحنات وضاحية البلدية.

بالطبع إنهم الفلسطينيون الذين دفعوا الثمن ولم يقضوا وقتا طويلا في التفكير في الرسالة التي يتم توصيلها لهم بهذه الطريقة. يقول طاهر المهدي عازم: ''شارون يقتل شعبنا في فلسطين لذا فإن جورج بوش يحاول أن يساعده بقتلنا هنا. هل تعتقد أننا لا نعلم ماذا يعني هذا؟ سبعة من شعبنا جرحهم الأمريكيون هنا بالطريقة نفسها التي يتم جرح شعبنا في فلسطين على أيدي الإسرائيليين!!.

(خدمة ''الإندبندنت'' خاص ''الوطن'')

www.ethraadl.com